

عمارة مدينة طرابلس القديمة من الفتح الإسلامي و حتى منتصف القرن 16م من خلال كتب الرحالة والمؤرخين

د. عادل المبروك المختار الفار

الأكاديمية الليبية للدراسات العليا

مدرسة الإعلام والفنون - قسم الآثار والحضارات المقارنة

ملخص الدراسة

هذه الدراسة هي استقراء للنصوص التاريخية التي وردت في مدونات الرحالة والمؤرخين العرب الذين زاروا مدينة طرابلس خلال الفترة التي تلت الفتح الإسلامي وحتى قبيل مجيء الأتراك العثمانيين إليها في منتصف القرن السادس عشر الميلادي، وذلك في محاولة لتتبع تطور الشكل المعماري للمدينة ومعرفة أهم ملامحها المعمارية في فترة اتسمت بأنها غير واضحة المعالم في هذا الجانب نظراً لاندثار أغلب تلك الملامح خلال فترة حدود الدراسة، وذلك بسبب التجديد الدائم للمكونات المعمارية بالمدينة والذي كان على حساب العمائر الأقدم، ومن هنا كانت مدونات الرحالة والمؤرخين والجغرافيين التي تحدثت عن المدينة خلال هذه الفترة هي المصدر الرئيسي والوحيد لتكوين فكرة شاملة عن الجانب المعماري آنذاك من خلال محاولة استنباط وتحليل الإشارات المعمارية فيها، وهذا هو هدف البحث .

ABSTRACT

This study is an extrapolation of the historical texts that were mentioned in the blogs of Arab travelers and historians who visited the city of Tripoli during the period that followed the Islamic conquest and even before the arrival of the Ottoman Turks to it in the middle of the sixteenth century AD, in an attempt to track the development of the architectural form of the city and to know its most important architectural features in the period. It was characterized by its lack of clear features in this aspect due to the disappearance of most of these features during the period of study limits, due to the permanent renewal of the architectural components of the city, which was at the expense of the older buildings, and hence the blogs of travelers, historians and geographers that talked about the city during this period were the main and only source. To form a comprehensive idea of the architectural aspect at that time by trying to devise and analyze the architectural signs in it, and this is the goal of the research.

المقدمة:

تُعد كتابات الرحالة جزءاً هاماً من المصادر التاريخية لأي بلد خلال حقبة زمنية معينة ، وتزداد أهمية هذا النوع من الكتابات كلما تضاءلت أنواع المصادر الأخرى وخاصة المؤلفات المحلية، وفي بلادنا تحديداً شكّلت كتب الرحلات وشهادات الرحالة العرب إضاءة مهمة على التاريخ الليبي في فترة ما بعد الفتح الإسلامي وحتى التسعة قرون اللاحقة له، هذه الفترة التي خلت تقريباً من كل ما يمكن أن يسלט الضوء على الأحداث التي مرت بها البلاد في هذه الفترة سواء أكانت مؤلفات محلية أو مخلفات أثرية مهمة ، وقد جاء موقع ليبيا الوسطي بين الغرب و الشرق العربيين رافداً مهما استفاد منه الدارسون لتاريخ البلاد، من حيث عدد الرحالة الذين كانوا في طريقهم من المغرب إلى المشرق و العكس ، والذين سجلوا ملاحظاتهم و مشاهداتهم لتكون المصدر الوحيد لهؤلاء الدارسين ولنا من بعدهم عن تاريخ ليبيا في هذه الفترة .

فقد كان من الطبيعي أن تحظى ليبيا بجزء مهم من اهتمام الرحالة المغاربة على وجه الخصوص وهم في طريقهم إلى المشرق لأداء فريضة الحج، حيث استأثرت البلاد بجانب من مؤلفاتهم، هذه المعلومات التي تنوعت بتنوع المراكز والمدن التي كانوا يمرون منها وفضولهم في اكتشاف تلك المناطق خصوصاً في ظل اختلافها جغرافياً واجتماعياً ومعمارياً عن بلاد المغرب ، وهو ما دفعهم إلى الاستكشاف ومحاولة عقد المقارنات، حيث قاموا بتدوين ملاحظاتهم عن مقامهم في تلك الديار متناولين معلومات قيمة فيما يخص البلاد وأمرائها وقادتها وعلمائها وفقهائها وعمارتها وما إلى ذلك، لذا فقد جاءت تلك الرحلات أشبه بسجل ثقافي وحضاري واثنوجرافي يفوق أحيانا ما كتب عن البلاد مباشرةً في فترات أخرى من حيث الدقة. (1)

وقد كانت طرابلس من أهم المدن الليبية التي شددت إليها اهتمام الرحالة وذلك لكونها مدينة تميزت بتنوعها الكبير من حيث نظمها الاجتماعية وتقاليدها المعمارية وراثتها الاقتصادي طيلة الفترة الإسلامية، بالإضافة إلى أن الرحالة كانوا يشعرون فيها بالراحة النفسية وذلك لطيبة أهلها وسماحتهم في استقبال الغرباء وعابري السبيل وهذا بشهادة اغلب الرحالة الذين كتبوا عنها ، ومن هنا فقد دون أغلبهم ابواباً وفصولاً ضمتها مؤلفاتهم عن شتى تفاصيل الحياة فيها .

ونظراً لغزارة وتنوع تلك المعلومات وكثرة الرحالة والجغرافيين الذين مروا بالمدينة في فترة ما بعد الفتح الإسلامي وحتى بداية العصر التركي بالشكل الذي لا يكفي في هذا المجال لسردها كلها،

فأنني هنا سأركز على ما ورد من معلومات بخصوص الجانب المعماري في المدينة وتطور هذا الجانب فيها مع مرور الوقت.

ولكن وقبل الخوض في تفاصيل الملاحظات والمشاهدات التي تضمنتها مؤلفات أهم الرحالة الذين مروا بالمدينة في الفترة المذكورة فأنتني لابد أن أشير هنا إلى أن ما يخص الجانب المعماري فيها كان يشوبه بعض العيوب التي أدت إلى تضارب المعلومات، هذه العيوب التي يمكن تلخيصها في ثلاث نقاط :

أولاً : تضارب بعض المعلومات من رحلة إلى آخر، وهذا لا ينطبق على الناحية المعمارية فقط و إنما على جل الجوانب الأخرى، حيث نجد أن بعض الرحالة الذين مروا بطرابلس في نفس الفترة التاريخية يختلفون في وصفهم لمبنى واحد مثلاً من حيث موقعه أو مؤسسه أو نوعه، وهذا يرجع ربما إلى عدم معرفة بعض أولئك الرحالة لخصوصيات المدينة وتفاصيل الحياة فيها .

ثانياً : خضوع ملاحظات كثير من هؤلاء الرحالة للحالة المزاجية للكاتب، فإذا أحس بالراحة فإنه يثني على المدينة ويُشيد بالازدهار العمراني فيها، وإن كان غير ذلك فإنه ينقّب عن المساوئ ويحاول إظهارها على حساب الجانب الإيجابي فيها، وإلا فكيف نفسر الطريقتين المختلفتين في وصف المدينة في فترة زمنية واحدة بين الإشادة بمعمارها ومكانتها العلمية وحسن معاملة أهلها للغريب ، وبين وصفها بمدينة القبور في إشارة إلى رداء معمارها، وبمرتع الجهل نسبة إلى جهل أهلها كما هو الحال بخصوص الرحالة العبدري ومن بعده بفترة بسيطة الرحالة ابن رشيد السبتي، فالأول ذمّ طرابلس بكل الصفات التي ذكرت من مرتع للجهل وكآبة في المنظر و جهل البشر، والثاني وصفها بالبلد الحسن و الناس الفضلاء وحسن البناء، كل ذلك كان في غضون خمس سنوات فقط، وهذا يؤكد أن الحالة النفسية والمزاج كان ينعكس لدى الرحالة على ما يدونونه في ملاحظات. (2)

ثالثاً : فيما يخص الجانب المعماري فإن وصف كل الرحالة لعناصر المدينة المختلفة جاء مقتصرًا على الشكل الخارجي فقط، وأحيانًا كانوا يصفون داخل المبنى بشكل عابر، فلم يتطرق أحدهم إلى الوصف الدقيق للمباني بالشكل الذي يمكننا من معرفة تفاصيل دقيقة عن الأساليب المعمارية أو المدارس الفنية أو عناصر البناء المختلفة التي كانت سائدة وقتها، ومن هنا فإن استفادتنا كباحثين في مجال العمارة الإسلامية في مدينة طرابلس من المعلومات الواردة في كتب

الرحالة تكمن - على الأغلب- في توثيق وجود المبنى في فترة زمنية معينة وليس معرفة تفاصيله المعمارية بشكل محدد ودقيق .

إن أول ما ورد بخصوص معمار مدينة طرابلس في المدونات التاريخية هو ما تضمنته مجموعة الروايات التاريخية لحركة الفتح الإسلامي ، هذه الروايات - وان لم يصل إلينا ما هو معاصر لها- إلا أن كتب الرحالة ومشاهداتهم في المدينة نقلت لنا ما تداول من أخبار في تلك الفترة ، فقد انفقت الروايات الإسلامية على أن عمرو بن العاص كان قد حاصر المدينة شهراً لم يظفر بها، حتى استطاع بعض جنوده أن يجدوا منفذاً من جهة البحر غربي المدينة، فسلكوه ودخلوا منه إلى داخلها واستولوا عليها ولولا ذلك لربما بقي المسلمون على حصارهم لها فترة طويلة في ظل منعها بأسوارها الحصينة التي تحيط بها من كل الجهات عدا جهة البحر الذي كانت تعتمد عليه في توفير ما تحتاج إليه من مؤن للوقوف في وجه أي حصار خارجي ، يتضح من ذلك أن أول ما ذُكر من معمار مدينة طرابلس في الفترة الإسلامية هو سورها المنيع الذي كانت تعتمد عليه في توفير الأمن و الأمان لمن يسكنها. (3)

بقت طرابلس بعد الفتح الإسلامي بعيدة عن الظهور في كتب التاريخ والرحلات فترة طويلة قاربت على الثلاث قرون، ولا يُعرف سبباً وجيهاً لذلك ، فربما كان عدم الاستقرار الأمني الذي رافق حركة الفتح فيها والمد والجزر بين المسلمين الفاتحين والليبيين السكان الأصليين هو ما دفع الرحالة والمؤرخين إلى الابتعاد عن المدينة والمنطقة ككل وسلوك طرق أخرى في تنقلهم من الشرق الى الغرب و العكس ، وربما كان عدم اهتمام الرحالة أنفسهم بكتابة ما يتعلق بالمدينة في مدوناتهم هو السبب لذلك، وربما هناك أسباب أخرى لذلك ولكن الأكيد أن أول ظهور لأسم طرابلس ومعمارها في المدونات التاريخية بعد ذلك جاء في نهاية القرن 3هـ في كتاب البلدان لليعقوبي، وان كان ذكره لها عابراً حيث قال :- " أطرابلس مدينة قديمة جلييلة على ساحل البحر عامرة أهلة ، أهلها أخلاط من الناس افتتحها عمرو بن العاص سنة ثلاثة وعشرون في خلافة عمر بن الخطاب" (4) ، وربما الإشارة الوحيدة إلى عمارة المدينة في النص السابق يأتي من كلمة (عامرة) في إشارة إلى عمران المدينة وما تحويه من مبان، أما غير ذلك فإن الأهمية الوحيدة له هو كونه النص الأول الذي ذكرت فيه المدينة بعد فترة انقطاع أخبارها في المدونات التاريخية.

ذُكرت طرابلس بعد ذلك في العديد من المدونات الجغرافية ومؤلفات الرحالة الذين مروا بها، وكان اغلب ما كتبه هو إشارات عابرة لتوثيق مرورهم بها لم تحوي أي معلومات عن معمارها في تلك

الفترة أو الحياة العامة فيها، واستمر ذلك حتى منتصف القرن 4هـ عندما زار المدينة الرحالة الجغرافي إبراهيم الكرخي، والذي أمدنا ببعض مشاهداته في المدينة حيث قال :- " أما طرابلس المغرب فهي من أعمال إفريقيا ، وهي مدينة من الصخر على ساحل بحر الروم خصبة واسعة حصينة جداً وكان يملكها أولاد الأغلب⁽⁵⁾ " ، نرى من خلال هذا النص أن التركيز ما زال منصباً على أسوار المدينة ومنعتها، وإن كان الكرخي قد أضاف إلينا معلومة جديدة عما سبقه مفادها أن الصخر هو ما استعمل في بناء سور المدينة .

وفي نفس الفترة تقريباً - أي منتصف القرن 4هـ - زار المدينة المؤرخ والكاتب الجغرافي ابن حوقل، ومن ضمن ما كتبه عن مشاهداته عنها قوله :- " وهي مدينة بيضاء من الصخر الأبيض ، خصبة حصينة ذات روض صالحة الأسواق ، وكان لها أسواق كثيرة فنقل السلطان بعضها إلى داخل السور"⁽⁶⁾ ، وقد ركز ابن حوقل في مشاهداته - بالإضافة إلى تحصين المدينة المنيع - الذي كان محط اهتمام كل من زارها - على شيء آخر مهم، حيث ذكر لنا شيئاً عن الازدهار الاقتصادي في تلك الفترة من خلال انتشار الأسواق داخل وخارج المدينة، هذا إلى جانب مادة بناء الأسوار والمباني التي أشار إليها بالصخر الأبيض، ومن هنا جاءت تسميته لها بالمدينة البيضاء، وهذا المصطلح تعارف عليه كثير من الرحالة الذين زاروا المدينة فيما بعد .

وفي أواخر القرن 4هـ أيضاً زار طرابلس الجغرافي العربي الكبير المقدسي، الذي قال عن المدينة في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم :- " و أطرابلس مدينة كبيرة على البحر ، مسورة بحجارة وجبل ، لها باب البحر وباب الشرق وباب الجوف وباب الغرب ، شريحهم من آبار و ماء مطر، كثيرة الفواكه وإسمها كبير"⁽⁷⁾ ، وهنا إشارة جديدة إلى بعض الملامح المعمارية لمدينة طرابلس في هذه الفترة و المتمثلة في وجود أربعة أبواب لسور المدينة موزعة على الجهات الأربعة له ، وهو ما نجده في معمار السور في الوقت الحاضر، إضافة إلى الإشارة إلى منعة المدينة وازدهارها الاقتصادي .

أما الرحالة الجغرافي أبو عبيد الله البكري فقد زار المدينة في النصف الأول من القرن 5هـ، وحفلت ملاحظاته بخصوص المدينة والمدونة في كتابه المسالك والممالك بتفاصيل كثيرة في الجزء المسمى (المغرب في ذكر إفريقيا وبلاد المغرب) من الكتاب، تلك التفاصيل التي لم يسبقه لذكرها احد ممن سبقوه ، حيث قال :- " وعلى مدينة أطرابلس سور من صخر جليل البنيان ، وهي على شاطئ البحر ، ومبنى جامعها أحسن مبنى ، ولها أسواق حافلة وجامعة ، وحمّامات

كثيرة فاضلة ن و بأطرابلس مسجد يعرف بمسجد الشعّاب مقصود وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون وأعمارها وأشهرها مسجد الشعّاب ، ومرساها مأمون من أكثر الرياح" (8)، فبعد الإشارة إلى وقوعها على البحر وتحصينها بسور من الحجر نجد أن البكري أشار إلى احد جوامعها - ويبدو انه الجامع المركزي للمدينة آنذاك - وذلك بحسن البناء دون التطرق إلى أوجه ذلك الحُسن من تفاصيل معمارية وفنية، كما أشار إلى الازدهار الاقتصادي المتمثل في الأسواق الجامعة والحافلة بحركة التعاملات التجارية، ولأول مرة في كتب الرحلات أشار البكري إلى وجود حمامات بالمدينة ووصفها بأنها كثيرة و فاضلة دون الدخول في تفاصيل معمارية في هذا الشأن، وأشار إلى مسجد الشعّاب كرباط يأتي إليه الصالحون شأنه شأن باقي الأربطة التي تكثر بالمدينة حسب كلامه .

أما الجغرافي الرحالة الشريف الإدريسي الذي مر بطرابلس في منتصف القرن 6هـ تقريباً فقد أضاف في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وبالتحديد في جزء (وصف إفريقيا الشمالية و الصحراوية) بعض التفاصيل المعمارية التي كانت تتميز بها مدينة طرابلس في تلك الحقبة فقال :- " ومدينة أطرابلس مدينة حصينة على سور حجارة ، وهي في نحر البحر ، بيضاء حسنة الشوارع متقنة الأسواق وبها صنّاع وأمتعة يتجهز بها إلى كثير من الجهات ، وكانت قبل هذا مفضلة العمارات ، إلا أن العرب أضرت بها وبما حولها وأجلت أهلها وأخلت بواديها وغيرت أحوالها و أبادت أشجارها وغورت مياهها، واستفتحها الملك رجار في سنة 540 فسبى نسائها وأفنى رجالها وهي الآن في طاعته" (9) ، وفي هذا السرد للإدريسي وصف المدينة بالحصانة ولونها الأبيض وحسن شوارعها و ازدهارها الاقتصادي، حيث يبدو من خلال النص أن الإدريسي قد زار المدينة أكثر من مرة وما وصفه لها في مرحلتين مختلفتين إلا دليل على ذلك ، ويبدو ايضاً أن زيارته الثانية قد تزامنت مع أوقات عصبية شهدتها المدينة حيث تغير كل ما شاهده سابقاً إلى حال أسوأ بفعل أحداث رهيبه عصفت بالمدينة في منتصف القرن 6هـ، فدمرت معمار المدينة وأجلت أهلها وحولت الازدهار إلى أطلال .

ومن القرن 6هـ ايضاً وصلنا كتاب يسمى (الاستبصار في عجائب الأمصار) لمؤلف مجهول كان يحمل في طياته مشاهدات مؤلفه عندما زار طرابلس ، فقال :- " مدينة أطرابلس : وهي مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر، والبحر يضرب في أسوارها ، وسورها من حجر جليل من صنعة الأولين ، وبها أسواق حافلة وحمامات كثيرة ويساتين في شرقها" (10) ، وهنا لم يأت المؤلف

بما هو جديد عما تناوله السابقين، فكل مشاهداته التي دونها عن المدينة ذُكرت سابقاً باستثناء ملاحظته أن السور هو من صنعة الأولين أي الرومان قبل الفتح الإسلامي .

يبدو أن أكثر الرحالة العرب الذين مرّوا بطرابلس إثارةً للجدل كان الرحالة والمؤرخ محمد العبدري الذي زار المدينة في أواخر القرن 7هـ، حيث كان له شأن مع المدينة يختلف عن بقية الرحالة، فقد شكّل العبدري النشاز في معزوفة الإطراء والمدح التي صاغها باقي الرحالة و المؤرخون في وصف المدينة ، سواء ممن سبقوه أو جاءوا بعده ، فقد انعكس استيائه من ضعف الحياة الفكرية في المدينة - كما يقول - وهو المهتم بهذا الجانب على باقي أوجه الحياة الأخرى، فجاءت ملاحظاته عن المدينة والتي ضمّنها كتابه (رحلة العبدري) قاتمة تكاد تخلو من أي شيء ايجابي باستثناء بعض الملامح المعمارية التي أبدى إعجابه على اقتضاب ، فقال :- " ولم أر بها ما يروق العيون وسما أن يقوم بالدون سوى جامعها ومدرستها، فان لهما من حسن الصورة نصيباً ومن إتقان الصنعة سهماً مصيباً، وما رأيت في الغرب مثل مدرستها المذكورة لولا أن محاسنها مقصورة على الصورة"، كما أعجب إلى درجة الذهول بالقوس الروماني الموجود في المدينة حتى انه وصفه وصفاً مفصلاً في كتابه من أعلاه إلى أسفله وأشار إلى كل تفاصيله المعمارية مشيداً بصناعة إتقانه، وهو الرحالة العربي الوحيد الذي أعجب بالقوس ووصفه هذا الوصف الذي يدل على عمق الحس الفني لديه، والذي ربما لو وصف به باقي المنشآت المعمارية في المدينة وخصوصاً الإسلامية منها لكان كتابه مرجعاً مهماً في معرفة كثير من الخبايا الغائبة عنا في مجال الدراسات الأثرية في هذه الحقبة من تاريخ المدينة، أما غير ذلك فلم نجد في مشاهدات العبدري إلا ما يسئ للمدينة وأهلها ، ويكفي استهلاله لكلامه عنها بقوله :- " ثم وصلنا إلى طرابلس وهي للجهل مأتّم وما للعلم بها من غرس ، أفقرت ظاهراً و باطناً تفرقت عنها الفضائل تفرق الحجاج يوم النفر وأهلها سواسية كأسنان الحمار ليس فضل لذي شبيهة ولا لذي الفضل بينهم هيبه ، ترى اجساماً حاضرة والعقول في غيابات الغيبة الخ " . (11)

ويبدو إن العبدري ومن خلال كتاباته كان يتمتع بقوة شخصية ، لا يركن إلى ما كتب من قبله ويحب أن يكتب مشاهداته الخاصة وان كانت تخضع لمزاجه الخاص، وأنه لم يلق في طرابلس ترحيباً يتلاءم مع مكانته العلمية كأحد العلماء الأجلاء في المغرب في ذلك الوقت ، وربما لو لاقى ذلك الترحاب لتغير كل ما كتبه عن طرابلس ، ومن هنا كان من الصعب أن نقتنع كباحثين في تاريخ وعمارة طرابلس بصحة كل آراء هذا الرحّالة والتي تسيء للمدينة وأهلها بشكل كبير، إذ أننا

حتى لو نظرنا إلى تلك الآراء بشكل محايد لوجدنا انه لم يأت من الرحالة العرب في الفترة المعاصرة لرحلة العبدري من فند صحتها أو قال بوجودها، بل على العكس تماماً فهناك من الرحالة المغاربة من مر بطرابلس في تلك الحقبة ووصفوها وصفاً مغايراً تماماً عما ذكره العبدري . فالرحالة ابن رشيد السبتي زار طرابلس في نفس الفترة تقريباً أي في أواخر القرن 7 هـ ودون ملاحظاته عنها في كتابه (ملء العيبة) ، وللقارئ الكريم الحكم والفصل بين الروايين اللتين تنتميان إلى نفس الفترة بعد أن يرى ملاحظات ابن رشيد السبتي عن المدينة حيث قال :- " فوافينا مدينة أطرابلس فرأينا بلداً حسناً وناساً فضلاء وبها مدينةً حسنة الوضع رائقة الصنع و المدينة بجمالها حسنة البناء متسعة الشوارع حتى أنها تحاكي بعض الشئ من وضع الإسكندرية " (12)، وكان السبتي قد ابتداءً ترحاله عام 685هـ وجاء إلى طرابلس عن طريق البحر قادما من مدينة الإسكندرية وهذا سر تشبيهه لطرابلس بها .

ومما ذكره السبتي ايضاً عن معمار طرابلس في تلك الفترة دخوله إلى مبنى مدرسة كان قائماً آنذاك عندما قال :- " أقمنا بها بعد المغرب بشارعها الأكبر ولم أكن اعرف المدينة ففحني نسيم عاطر كأنه باكره ماطر فألقيت على يسار المار باباً شارعاً لما حوله من الأبواب فارغاً فتوقفت انتشق ذلك العرف إلى أن تعرفت أنها مدرسة فأقدمت على الدخول فوافيت وسطها روضة مخضلة من خيري احمر قد استوى على سوقه " (13)

من خلال المقارنة بين الروايين نلاحظ الاختلاف الواضح بينهما من جل النواحي، إذ أن مزاج الكاتب كان له الرأي الأول في طابعهما ، فأبن رشيد السبتي - وكما ورد في روايته - لاقى ترحيباً كبيراً من شيخ المدينة وقاضيتها، ولكن ذلك لا يعني أن إطرانه على طرابلس وأهلها قد جاء من هذا المنطلق، لكن القصد أن تدوينه لملاحظاته خلا مما يعكس صفوها على عكس كتابات العبدري والتي لم يشر فيها إطلاقاً إلى حسن الاستقبال مع قيمته العلمية الكبيرة آنذاك كونه احد علماء المغرب الأجلاء، فصبَّ غضبه على المدينة متخذاً من الحالة الفكرية لها في تلك الفترة والتي لا يمكن أن تقارن مع الحركة العلمية في المغرب بأي حال من الأحوال نقطة انطلاق، لكنه أفاض في استيائه من هذه الحالة لينقل هذا الاستياء إلى المدينة ككل وأهلها واغلب عمائرنا آنذاك .

ويعتبر الرحالة والمؤرخ عبد الله التيجاني صاحب أوسع واشمل صورة قدمها رحالة عربي عن مدينة طرابلس وضواحيها، فقد أُتيح له ما لم يُتَح لغيره فأقام بالمدينة لما يقرب من عامين (706 - 708 هـ)، هذه الإقامة التي مكنته من الإطلاع على أحوال المدينة المختلفة والتواصل مع كل

فئات أهلها ودراسة كافة الأحداث الراهنة مع اطلاعه على كتب السير والتاريخ التي استفاد منها في معرفة ما سبق من أحداث في المنطقة، فجاء وصفه للمدينة شاملاً لكل جوانب الحياة فيها سواءً كانت اجتماعية أو سياسية واقتصادية أو عمرانية، لذا فكتابه (رحلة التيجاني) يُعتبر مرجعاً عامّاً و شاملاً عن طرابلس في فترة تواجده بها وهي بداية القرن 8 هـ ، حيث اعتمد معلوماته و أوصافه لتفاصيل المدينة كثير من الدارسين والمؤرخين الذين جاءوا من بعده لعل أبرزهم المؤرخ الكبير ابن خلدون ، بالإضافة إلى أنها شكّلت مصدراً مهماً لكثير من الدراسات التاريخية الحديثة لدى الدارسين العرب والأجانب .

يقول التيجاني في انطباعه الأول عن المدينة :- " ولما توجهنا إلى طرابلس و أشرفنا عليها كاد بياضها من شعاع الشمس يعشى الأبصار فعرفت صدق تسميتهم لها بالمدينة البيضاء ، وخرج جميع أهلها مظهرين للاستبشار، رافعين أصواتهم بالدعاء ، وتخلّى والي البلد إذ ذاك عن موضع سكناه وهو قسبة البلد فنزلنا بها" .

وقد دَوّن التيجاني في فترة إقامته بالمدينة كثير من المشاهد المعمارية، فاعتبرت بذلك من أهم المدونات التي وثّقت لنا الحالة المعمارية في تلك الفترة ، ويمكن أن نختصر ما ذكره المؤلف في هذا الجانب فيما يلي :

- شوارع المدينة : حيث قال : (فلم أرى أكثر منها نظافةً ولا أحسن اتساعاً واستقامةً وذلك لأن أكثرها تخترق المدينة طولاً وعرضاً من أولها إلى آخرها على هيئة شطرنجية ، فالماشي فيها يمشي مشي الرخ خلالها).
- قسبة المدينة : وهي القلعة التي كان الولاة يتخذونها سكناً لهم وقد قال التيجاني في وصفها :- (إن آثار الضخامة باديةً عليها غير أن الخراب قد تمكن منها ، وقد باع الولاة أكثرها فما حولها من الدور التي تكتنفها الآن إنما استخرجت منها ، ولها رحبتان متسعتان).
- أسوار المدينة : التي قال في وصفها :- (ورأيت بسورها الاعتناء واحتفال البناء ما لم أراه لمدينةٍ سواها ، وسبب ذلك أن لأهلها حصاً من مجباها يصرفونه في رمّ سورهم ، فهم لا يزالون يجددون البناء فيه ويتداركون تلالشيه بتلافيه ، ورأيتهم قد شرعوا في حفر خندق متسع يرمون أن يصلوه بالبحر من كلا جانبي البلد).
- أبواب المدينة : وقد تعرض التيجاني خلال حديثه لأربعة أبواب رئيسية هي : الباب الأخضر و باب هواره و باب البحر و باب الستارة .

- حمّام البلد : فيقول المؤلف :- (ودخلت حمّام البلد وهو مجاور للقصبية فرأيت حمّاماً صغير المساحة إلا انه بلغ من الحسن غايته وتجاوز من الطرف نهايته ، وكان هذا الحمّام من منافع القصبية فبيع من جملة ما بيع منها ، وهو الآن محبس على بعض المساجد ، وبالبلد حمّامان آخران.

- المساجد : واهم مسجد ذكره منها مسجد يسمى بمسجد العشرة الذي قال عنه : (المسجد المعروف في القديم بمسجد العشرة لأن عشرة شيوخ من البلد كانوا يجتمعون فيه للمشورة ، فيدبرون أمرهم قبل تملك الموحديين لها، فلما تملكوها زال عن المسجد الاسم).
ومن المساجد الأخرى التي ذكرها التيجاني مسجد عمرو بن العاص والذي وصف مكانه بأنه قرب موقف الغنم الواقع بجانب باب هوّارة ، وهو غير موجود في وقتنا الحاضر ولكن ومن خلال الوصف يتبين انه قد هدم في العصر القره مانلي وبُني على أنقاضه مسجد احمد باشا القره مانلي، هذا إلى جانب المسجد الأعظم الذي وكما يقول المؤلف شيده بنو عبّيد وهو على قوله :- (جامع متسع على أعمدة مرتفعة وسقفه حديث التجديد وبه منار متسع مرتفع قائم من الأرض على أعمدة مستديرة فلما تمّ نصفه سدّس، وكان بناؤه في العام المكمل للمائة الثالثة)، وذكر أن موقعه كان بين القصبية والمدرسة المستنصرية والقوس الروماني، وقد ذكر التيجاني العديد من المساجد الأخرى التي كانت قائمة آنذاك والتي تقع خارج أسوار المدينة ومنها مسجد الشعّاب ومسجد الخطّاب ومسجد الجدّة ومسجد المزاج، وكل هذه المساجد لا يوجد لها اثر في الوقت الحاضر حيث يرجح أنها دمرت بالكامل في القرن 16م إيّان فترة الاحتلال الإسباني وفترة حكم فرسان مالطا للمدينة .

- المدارس : فقد ذكر التيجاني العديد من المدارس الإسلامية التي كانت موجودة في المدينة وكان لها دوراً بارزاً في إرساء قواعد الدين الإسلامي والخدمة الاجتماعية لسكان المدينة، ومن أهم تلك المدارس المدرسة المستنصرية أو (مدرسة الرخام) وعنها يقول التيجاني :- (أما المدارس فإن المدرسة المستنصرية أجملها وكان بناءها على يد الفقيه أبي محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا فيما بين عامي 1255-1258م ، وهي من أحسن المدارس وضعاً و أضرفها صنعاً)، وهذه المدرسة غير موجودة حالياً، لكن وبحسب وصف التيجاني فإنها تقع قرب القوس الروماني من جهة باب البحر حيث يشير بعض المؤرخين أنها من

الممكن أن تكون بالموقع الذي يقوم عليه الآن جامع قُرْجِي، وان هذا الجامع بُني بعد ما دُمّرت المدرسة في القرن 16م مع ما دُمّر من المباني في عصر الأُسبان والفرسان .

- القوس الروماني (قوس ماركوس اوريليوس) : حيث لم يغفل التيجاني الحديث عن هذا الأثر فذكر لنا موقعه وبعض تفاصيله المعمارية فيقول :- (وبين المدرسة المستنصرية وباب البحر مبنً من المباني القديمة العجيبة وهو على شكل قبة من الرخام المنحوت المتناسق الأعالي و التحوت ، التي لا تستطيع المائة من نقل القطعة الواحدة منها ، قامت مربعة فلماً وصلت إلى السقف ثَمّنت على إحكام بديع وإتقان عجيب وهي مصورة بأنواع التصاوير العجيبة نقشاً في الحجر ، وقد بني عليها الآن مسجد يصلى فيه)، ويقول عن تاريخ إنشائه : (وجدت نصرانياً يعرف ذلك الخط فذكر لي أن نصه : أمر ببناء هذه الكنيسة فلان ابن فلان من حلال ماله وفي يوم إتمام بناءه -أو يوم شروعه فيه- وصل إليه الخبر من الشام أن نبياً من العرب ظهر بالحجاز اسمه محمد بن عبد الله).⁽¹⁴⁾

من خلال ما تقدم نستخلص أن الرحالة التيجاني قدّم لنا معلومات مهمة عن الشخصية المعمارية لمدينة طرابلس في الفترة التي تواجد بها في المدينة والتي كانت تُبيل مجيء الأتراك العثمانيين إليها بفترة غير طويلة، وبينت تلك المعلومات مدى ثقافة هذا الرحالة بتناوله مسائل تاريخية حدثت قبله وربطها مع ما هو موجود بأسلوب ينم عن إطلاعه وقراءته لكتب التاريخ، حيث يتبين ذلك من خلال استشهاده بما ورد عن بعض المؤلفين الذين سبقوه واقتباسه أحيانا من وثائقهم ومدوناتهم، أما طريقة وصفه فكانت تتميز بوقوفه مطولاً عند كل ما يصفه، وعند كتابة ذلك الوصف فإنه لا يتقله بانطباعاته الشخصية أو التتمق بالعبارات التي يهدف الكاتب من خلالها إلى استعراض مهاراته في الكتابة -كما يفعل غيره- ولكنه كان يُدوّن ملاحظاته بطريقة سلسلة تهدف إلى إيصال المعلومة مجردة وواضحة للقارئ، ومن هنا جاءت أهمية كتاباته لدارسي تاريخ تونس وليبيا بشكل عام وطرابلس الغرب بشكل خاص، ورغم أنها لم تحمل كل التفاصيل المعمارية التي نسعى إلى معرفتها عن عمائر المدينة في تلك الفترة إلا إننا نلاحظ أن المؤلف قام بجهد في إيصال أوضح الصور التي يراها لمن بعده ، فكانت أوصافه المعمارية في بعض الأحيان واضحة و مفصلة استخدم فيها مسائل معمارية بحتة كأنواع الزخارف وطرق التسقيف ووسائل الانتقال وغيرها.

أهم المعالم الأثرية الباقية التي تعود إلى تلك الفترة بمدينة طرابلس القديمة:

من خلال ما تقدم من استعراض لمشاهدات الرحالة و الجغرافيين العرب الذين مروا بمدينة طرابلس في فترات مختلفة من الحقبة الإسلامية نلاحظ أنهم تعرضوا بالذكر -ولو بشكل مقتضب- لبعض المنشآت المعمارية التي لا يزال بعضها قائماً حتى الآن ، ومنشآت أخرى كانت قائمة وعامرة لكنها اختفت ولم يصل إلينا إلا ذكرها من خلال تلك المدونات التي خلفها أولئك الرحالة .

والغالب في الظن أن النوع الأول من تلك المنشآت و المتمثل في الباقي منها إلى حد الآن قد قاوم عوامل التلف وتمكن من الصمود في وجه الزمن ربما لأن أهميته سواء الإستراتيجية أو الدينية حثمت على أصحاب المدينة وملاكها على اختلافهم عبر المراحل المتعاقبة أن يهتموا بها وان يداوموا على صيانتها وتلافي خرابها، فبقت و صمدت إلى وقتنا هذا، وربما كان لمادة البناء دوراً بارزاً في بقاء المعمار قائماً صامداً في وجه عوامل التعرية والتلف والزمن، أما النوع الثاني من تلك المنشآت وهو الذي اختفى ولم يبق له اثر حالياً فإن أسباب تلاشيها متعددة متنوعة بعضها من فعل الطبيعة والبعض الآخر من فعل يد البشر، فبعض تلك العمائر بُنيت بمواد لم تستطع مقاومة عوامل الطبيعة وانهارت بعد فترة بسيطة من بنائها، وربما كان ذلك راجعاً إلى فقر البلاد للمواد الجيدة للبناء كالحجر والرخام والأنواع الجيدة من الأخشاب، أو لأن خبرة البناء أنفسهم في تلك الفترة - والذين كانوا في الغالب من المحليين غير المتخصصين - لم تساعدهم على إنشاء عمائر مُتقنة قادرة على الصمود لفترة طويلة ، أما فيما يخص عوامل التلف التي هي من صنع يد البشر فهي كثيرة ، نذكر منها مثلاً الهدم لأغراض التجديد، فمدينة طرابلس مدينة محصورة في نطاق جغرافي ضيق وقد بقت كذلك منذ نشأتها وحتى فترة متأخرة، أي حتى منتصف القرن 19م عندما فكر الولاة العثمانيين في التوسع عمرانياً خارج أسوار المدينة نظراً لاكتظاظها بالسكان وعجزها على احتوائهم، أما قبل ذلك فقد كان السكان يقومون بهدم مبنى إذا أرادوا إنشاء مبنى آخر، فهدم القديم ليحل محله الجديد كانت القاعدة التي لا مفر منها لتطوير و تحديث المباني ليتلاءم مع متطلبات السكان واحتياجاتهم الاجتماعية والاقتصادية وكذلك الدينية و السياسية .

أما السبب الأهم لتلف اغلب المباني فقد كان يتمثل في عدم الاستقرار الأمني الذي عانت منه المدينة لفترات طويلة، والنكبات العديدة التي حلت بها والتي كانت دائماً ما تؤثر على عماراتها، فالمدينة دُمّرت في فترات عديدة ، بدايةً من الاجتياح الوندالي الذي ضرب المدينة فيما بين عامي 455-534م ، مروراً بالأحداث التي صاحبت الفتح الإسلامي والتي دُمّرت خلالها أسوار المدينة والخلافات العديدة بين الدويلات التي تعاقبت على حكم طرابلس لاحقاً والتي راح ضحيتها عدد

كبير من المنشآت المعمارية فيها، وما كادت طرابلس تأخذ قسطاً من الراحة وتعيد اتزانها وتتعلم بازدهارها العمراني في القرن 9 هـ / 15 م ، حتى تلقت ضربات متلاحقة أودت بقسم كبير من المباني العامرة و المزدهرة والتي أشاد بها كل من مر بها من رحالة مؤرخين و جغرافيين، هذه الضربات التي تمثلت في القصف الإسباني عند مهاجمتهم للمدينة و احتلالهم لها عام 1510 م ، ومن بعده القصف العثماني عندما رفض فرسان مالطا التنازل سلمياً عنها عام 1551 م .

ومن هنا فإن ملامح المدينة الحالية والتي تعود إلى ما قبل العصر العثماني والتي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا قليلة جداً يمكن أن نختصرها فيما يلي :

أولاً : المخطط العام للمدينة :

إن مدينة طرابلس لم تُخلق أو تُوضع بشكلها الحالي بإرادة فرد أو مجموعة أفراد كما هو الحال في روما ومعظم المدن الرومانية، إنما تطورت ونمت عبر التاريخ بشكل طبيعي ومتدرج، فقد استوعبت المدينة كل جديد عبر فترات تاريخها المتعاقبة وتبنته إلى جانب القديم لتكوّن نسيجاً معمارياً ذا لحمة واحدة بالرغم من تعدد الطرز المختلفة في عمارتها، وهذا ينطبق على المخطط العام للمدينة، فهو مخطط نما وتدرج عبر التاريخ الذي عايشته وكان في كل حقبة يتغير ويتمدد ليلائم متطلبات العصر وليكون قادراً على استيعاب نمو عدد السكان من جهة ومتطلباتهم الحياتية المختلفة من حيث العنصر المتنوع التي تلبى احتياجاتهم المختلفة من جهة أخرى .

فلمدينة طرابلس كما هي الآن شكلاً خماسياً غير منتظم يحيط البحر بضلعين منها وهما الجهة الشرقية التي تمثل الضلع الأطول من الشكل الخماسي، والجهة الشمالية الشرقية، أما الأضلاع الأخرى فتُشرف على الجهات البرية التي كانت في الماضي تمثل البساتين والمزارع الملحقة التي كانت تعتمد عليها المدينة في اقتصادها بشكل كبير، قبل أن تتحول تلك المزارع في النصف الثاني من القرن 19 م إلى ما يُعرف بالمنشية أو المدينة الحديثة بفعل عجز المدينة القديمة على مواجهة متطلبات العصر وارتفاع عدد السكان و احتياجاتهم، ويحيط بهذا الشكل الخماسي سور من الحجر حيث يبلغ محيط هذا السور حوالي 1130 ياردة طولاً و 870 ياردة عرضاً ،وبهذا فإن إجمالي مساحة المدينة يُقدر بنحو 48 هكتار . (15)(شكل رقم1).

أما من الداخل فتتقسم المدينة إلى مجموعة مناطق إدارية تسمى (حومات) يفصل بين كل حومة وأخرى شوارع رئيسية مستقيمة ومتقاطعة تظهر المدينة وكأنها لوحة شطرنجية⁽¹⁶⁾، وتتميز تلك الشوارع باستقامتها حيث تقوم على جانبيها في الغالب الأعمدة الرخامية والحجرية تُظلل

بالأسقف الخشبية، وبالدخول إلى تلك الحومات تتفرع الشوارع الرئيسية إلى عدد من الطرق الضيقة والأزقة التي تتوغل إلى داخل الأحياء الشعبية لتصبح طرقاً ضيقة وملتوية مسقوفة أشبه ما تكون بالأنفاق المظلمة . (17) (شكل رقم 2).

والمتتبع لتخطيط المدينة العام منذ نشأتها يستنتج بوضوح أنها خضعت أولاً لمخطط المدن الرومانية الذي كانت المدينة فيه تتكون من شارعين رئيسيين هما الشارع الطولي الذي يسمى بالكاردو والشارع العرضي الذي يسمى بالديكومانوس والذين يتقاطعان في نقطة معينة عادةً ما كان يقام فيها شاهد يُعرف في المدن الرومانية باسم قوس النصر، وكانت هذه المنطقة نقطة دالة في المدينة الرومانية، وبالنظر لمخطط طرابلس القديمة نستنتج أن هذا الشكل يتضح تماماً في الجهة الشمالية منها والتي كانت على الأرجح هي المدينة الرومانية، بدليل وضوح الشارعين الرئيسيين الكاردو و الديكومانوس والتقاءهما عند القوس الروماني المعروف باسم قوس ماركوس اوريليوس، وبالتالي فإن المدينة القديمة شيدت على انقاض المدينة الرومانية التي شيدت هي الأخرى على انقاض المدينة الفينيقية ، توسعت بعد ذلك إلى جهة الجنوب عبر مراحل متعاقبة إلى أن وصلت إلى شكلها الحالي حيث سارت في تخطيطها العام على الشكل الأول، فكان المخطط في كل فترة يتخذ من الشارعين الرومانيين الرئيسيين دليلاً للامتداد العمراني، حيث أن تطور المدينة وتوسعها جهة الجنوب حتم على أصحاب المدينة عبر الفترات التالية للعصر الروماني مدّ شارع الكاردو إلى الجنوب ليسيير المخطط العام للمدينة عليه ويكون الخط الذي تتوزع عليه المنشآت المهمة للمدينة، مع اعتماد الشوارع الصغيرة والأزقة الملتوية للدخول من الشارع الرئيسي إلى الأحياء الداخلية والمناطق السكنية المخصصة للعامة والتي كانت في العادة غير مطلة على الشارع الرئيسي، أما الشارع الرئيسي الآخر وهو الديكومانوس الذي كان يتجه من الغرب إلى الشرق فقد جزء كبير من أهميته في ظل تطور المدينة وامتدادها إلى جهة الجنوب، هذه الأهمية التي نقلها المخططون إلى شوارع عرضية أخرى جعلت لتواكب الامتداد العمراني وليتلاءم ذلك مع المدينة وحجمها الجديد . (18)

إذاً فالمخطط الروماني لطرابلس كان هو أساس التخطيط في العصور اللاحقة وهو الذي نسجت عليه المدينة شكلها الحالي، رغم أن ذلك الشكل لم يبق منه الآن إلا شارعيّ المخطط الروماني حيث يمكن تتبع سيرهما في الجزء الشمالي من المدينة بالإضافة إلى أهم معلم روماني بالمدينة

وهو قوس ماركوس اوريليوس الذي يشير بأقواسه الأربعة إلى اتجاهات الشارعين الرئيسيين للمدينة الرومانية . (شكل رقم 3)

و بالانتقال إلى الفترة الإسلامية سلاحظ تطور المدينة وتوسعها لتفي بمتطلبات عدة يأتي في مقدمتها بالطبع التزايد الطبيعي في عدد السكان وتوفير احتياجاتهم العمرانية من منازل سكنية ومنشآت خدمية لجميع مناحي الحياة، وحيث أن المدينة محصورة من جانبيها الشمالي والشرقي بساحل البحر فقد كان من الطبيعي امتدادها إلى جهة الجنوب والغرب، لتتواصل حركة التطور العمراني للمدينة ومخططها العام تدريجياً حتى النصف الثاني من القرن 18 م، عندما اتخذت المدينة شكلها الحالي ولتتوقف حركة النمو فيها لإتاحة الفرصة كي تظهر المدينة الحديثة التي أزلحت بشكل من الأشكال حِملاً ثقيلاً عن كاهل المدينة القديمة كان يمكن أن يؤدي بكثير من المنشآت العمرانية في تلك الفترة لإقامة مباني أخرى كما كانت قاعدة التطور العمراني دوماً في مدينة طرابلس القديمة .

وإذا وضعنا أهم التطورات التخطيطية والعمرانية التي مرت بها مدينة طرابلس القديمة في الفترة التي تلت الفتح الإسلامي لها وحتى بداية العصر العثماني في نقاط، فإننا سنقسمها إلى قسمين رئيسيين هما :

1 - : العصر الإسلامي : وتمثلت التطورات العمرانية بها في ثلاث محاور رئيسية :

1- إقامة المنازل : حيث زاد عدد السكان في المدينة نتيجة رجوع المهاجرين إليها بعدما أجلوا عنها في العصور السابقة، وكانت المنازل هي الإنشاءات الوحيدة التي خضعت لقوانين تخطيطية صارمة عند بناءها طيلة الفترة الإسلامية، وذلك من حيث تحديد الارتفاعات ووضع الشبائيك احتراماً لحقوق الجيرة وحفاظاً على خصوصية المنزل وأهله .

2- إقامة المتاجر والأسواق التجارية : والتي كانت تقام عادةً على جانبي الشوارع الرئيسية في المدينة وعلى امتداد الشوارع التي توجد فيها البوابات الرئيسية النافذة إلى داخلها .

3- إنشاء المساجد : حيث انقسمت إلى مساجد جامعة رئيسية وكانت تقام عند التقاء شوارع البوابات في المكان الذي كانت توجد فيه ساحات المدينة، وإيضاً مساجد صغيرة تُبنى في الأزقة والشوارع الداخلية. (19)

ب - : فترة حكم الأسبان و فرسان القديس يوحنا : وتتمثل أهم التطورات العمرانية فيها :

- 1- الاهتمام بالأسوار والتحصينات الدفاعية على حساب باقي عمائر المدينة .
- 2- إعادة بناء القلعة ذات المنشأ الروماني للاحتماء بها من هجمات الأهالي الشرسة .
- 3- إقامة الأبواب الرئيسية للمدينة لأغراض عسكرية، وهذه الأبواب لازالت موجودة إلى يومنا هذا، وهي: باب الجديد، باب البحر، باب المشير، باب هواره، باب العرب (20) .

ثانياً / الأسوار :

تعتبر الأسوار من أهم الوسائل الدفاعية التي تقام لحماية المدن من الأخطار الخارجية، فاندماج الناحية الأمنية لمدينة طرابلس في كثير من مراحلها التاريخية كان دافعاً لمن حكمها للاهتمام بالأسوار وتحسينها وتدعيمها لتقف سداً منيعاً في وجه الغزاة و الطامعين و المهاجمين لها، فالمدينة وكما هي الآن يحيط بها سور من جميع الجهات يصل ارتفاعه إلى 9 أمتار تقريباً في أقصى ارتفاعاته، وليس هناك ما يفيد أن هذا السور كان موجوداً بكامله قبل الفتح الإسلامي، بل على العكس فقد ورد في أخبار الفتح الإسلامي لطرابلس أن المدينة كانت مسورة من جهتي البر فقط حيث كانت بيوت السكان مُشرعة على البحر الذي كان يؤمن لها الإمدادات التي تمكنها من الصمود في وجه الحصار⁽²¹⁾، ويبدو أن المدينة استمرت على هذا الحال فترة طويلة من الزمن، فالمسلمين الفاتحون لم يهتموا في البداية بتسوير المدينة بل أنهم أزالوا جزء كبير من السور الذي كان قائماً آنذاك حتى لا يعود الرومان أو الأهالي المتمردون إليها و يتحصنوا بها، وتشير اغلب الروايات أن أول اهتمام بترميم السور كان إبان العصر الأغلبي في القرن 3هـ، والذي شهدت فيه المدينة ككل نهضة معمارية كان من بين أهدافها تأمين دفاع جيد للمدن التابعة لحكمهم في شمال إفريقيا والتي كانت طرابلس من بينها، فقاموا ببناء سور للمدينة من الجهتين المطلتين على البحر مع تدعيم الأسوار القائمة في الجهات الأخرى و ترميم الأجزاء المنهارة والآيلة للسقوط منها⁽²²⁾، وقد نال السور إعجاب واستحسان كل من زار المدينة بعد تلك الفترة فأشاد به كثير من الرحالة في كتاباتهم، وكان السور دائماً ملازماً للتعريف بالمدينة في تلك الكتابات التي تناولت تاريخ طرابلس و معمارها والتي نتتبع من خلالها المراحل التي مرت بها الأسوار من قمة منعته في حقب كثيرة إلى فترة تهالكها وضعفها بفعل الطبيعة أو الحروب التي كانت تنال من تلك الأسوار، واستمر ذلك حتى وقعت طرابلس في بداية القرن 16 م في يد الأسبان الذين أولوا اهتماماً في البداية بالأسوار لإيجاد الضمانات اللازمة لأمنهم المههدد من قبل الأهالي الغاضبين، لكن الحالة المزرية لتلك

الأسوار جعلت اهتمام الأسبان ينصرف إلى الاهتمام بالقلعة كونها الملجأ الآمن لهم من شراسة الهجمات الخارجية، حتى أن ذلك جاء على حساب الأسوار نفسها حيث تشير المصادر أن الأسبان هدموا ما يزيد عن 200 خطوة من السور لاستعمال مخلفاتها في تحصين القلعة⁽²³⁾، وكان تهالك الأسوار في تلك المرحلة احد الأسباب التي دفعت الأسبان إلى التفكير في التخلص من المدينة عبر تسليمها إلى فرسان القديس يوحنا كون تلك الأسوار لا توفر الأمن و الطمأنينة لهم في ظل المقاومة العنيفة للأهالي، وقد اتضح ذلك لفرسان مالطا بمجرد استلامهم لها ، حيث اكتشفوا الحالة السيئة للمدينة و تحصيناتها، وأنهم بحاجة إلي أموال كثيرة إن هم أرادوا إصلاح تلك التحصينات فالتزموا بالقلعة - كما هو حال أسلافهم الأسبان - وصبوا اغلب اهتمامهم عليها إلى أن جاء العثمانيون إلى المدينة و دمروا أجزاء كبيرة من الأسوار بمدافعهم في ظل تعنت الفرسان ورفضهم تسليم المدينة مما زاد من سوء حالة الأسوار وتهالكها في تلك المرحلة.⁽²⁴⁾

ثالثاً :- القلعة (السراي الحمراء) :

وتعرف تاريخياً بقلعة طرابلس، وقد سميت بالسراي الحمراء في العصر العثماني لأن اغلب أجزاءها كانت تطل على اللون الأحمر، وهي تقع في الزاوية الشمالية الشرقية من أسوار المدينة وتُشرف على ميناءها الأمر الذي مكّنها من الأشرف على حمايتها و الدفاع عنها براً و بحراً عبر العصور المتلاحقة .

والقلعة تشكل جزء مهم من تاريخ مدينة طرابلس وسمة بارزة من سمات العمارة بها ومظهراً سياسياً من معالمها ، حيث ارتبطت بالمدينة ارتباطاً عضوياً في جميع عصورها فمثلت الحصن العسكري وقصبة المدينة وقلعتها وحمايتها ومقر أميرها أو واليها أو حاكمها، وعبر العصور أُدخل عليها العديد من التعديلات التي تتناسب مع كل فترة، وبمظهرها الحالي فإن الطابع العربي الإسلامي هو المميز في عمارتها بفضل العناصر المعمارية و الزخرفية التي أضيفت لها خلال العصر العثماني من نافورات ونقوش وزخارف وعقود ومشربيات تمسكت بها القلعة وظلت محتفظة بها إلى يومنا هذا .⁽²⁵⁾

وعن أصل القلعة فإن اغلب المصادر تذكر أنها ذات منشأ روماني بُنيت على أنقاض مبانٍ رومانية أقدم ربما كانت حمّامات عامة وذلك من خلال البقايا التي وجدت في الحفريات التي أجريت تحت القلعة وأدت إلى اكتشاف أعمدة و تيجان رخامية ضخمة تعود إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين .

وقد شكّلت القلعة حصناً منيعاً للدفاع عن المدينة حيث وقفت إلى جانب الأسوار سداً في وجه الغزاة و الفاتحين ، ولعل صعوبة الفتح الإسلامي لها دليلاً مؤكداً على ذلك، لذا فإن القلعة استمرت حاميةً للمدينة في اغلب فترات العصر الإسلامي حيث أهتم اغلب حكام تلك الفترة بها من خلال إقامة التحصينات والأبراج الدفاعية، وإن كان هذا الاهتمام قد لقي شيئاً من الفتور في أواخر الفترة الإسلامية مما أدى إلى تهالك الجدران وضعف التحصينات كما أشار بعض الرحالة الذين زاروا المدينة في تلك الفترة ومنهم الرحالة محمد التيجاني. (26)

وعندما احتل الأسبان طرابلس اهتموا اهتماماً خاصاً بالقلعة و الأسوار وذلك لأسباب أمنية لدرجة أنهم هدموا الكثير من المباني في المدينة - وخصوصاً الدينية منها لأسباب عقائدية- واستعملوا ركامها في تحصين وتجديد جدران القلعة وإقامة الأبراج الدفاعية ويبدو أن معظم البناء الخارجي الحالي للقلعة يعود إلى فترة الحكم الإسباني بالتحديد وكذلك الفترة اللاحقة من حكم فرسان مالطا، حيث بنى الأسبان برجين بالقلعة هما البرج الجنوبي الشرقي الذي أطلقوا عليه اسم برج (القديس جورج)، وكذلك البرج الشمالي الغربي الذي أسموه برج (القديس جاكوب) وبنوا بينهما جدار ضخّم زود بفتحات لوضع المدافع حسب التقاليد المتبعة في أوروبا إبان تلك الحقبة، أما ابرز إضافاتهم داخل القلعة فتتمثل في تحويلهم لأجمل و أكبر قاعاتها إلى كنيسة سميت بكنيسة (القديس ليونارد) وقد بنى فرسان مالطا برجاً آخر في الجهة الشمالية الشرقية من القلعة أطلقوا عليه اسم برج (سانتا باربرا)، وكان يبدو من خلال الخرائط التي تعود إلى القرن 17 م أن القلعة محاطة بقناة مائية من جميع الجهات المطلّة على الناحية البرية موصولة بالبر لتجعلها أشبه بجزيرة عائمة، وكان يدخل إليها عبر جسر متحرك يقع عند الجدار الجنوبي للقلعة. (شكل رقم 4).

والقلعة بشكلها الحالي حيث تبلغ مساحتها نحو 13000 متر مربع، أي طول جدارها الشمالي الشرقي 115 متر، و جدارها الشمالي الغربي 90 متر، أما جدارها الجنوبي الغربي فيبلغ طوله 130 متر، في حين يبلغ طول الجدار الجنوبي الشرقي 140 متر، ويبلغ أقصى ارتفاع لها نحو 21 متر. (28)

الخلاصة

من كل ما سبق نخلص الى نتيجة مهمة مفادها ان المدينة القديمة بطرابلس نشأت نتيجة تراكمات معماريه بدأت منذ نشأتها في العصر الفينيقي ثم العصر الروماني ومرت بأطوار عديدة من التطورات لتكتسب شكلها الحالي الذي يقف شاهدا على الأحداث التي عاشتها المدينة في فترات تاريخية متعددة، وبالرغم من أن مدة التسع قرون التي مرت بالمدينة ابتداءً من الفتح الإسلامي وحتى مجيء الأتراك العثمانيين تعتبر من الفترات المجهولة لنا معماريا إلا ان مؤلفات و كتابات الرحالة والتي تم فرز ما يخص الجانب المعماري للمدينة فيها تقف شاهدة على أن طرابلس القديمة كانت طوال تلك الفترة بوتقة معماريه صُهرت فيها كل الإمكانيات المعمارية للبناء المحليين و لتظل المدينة النموذج الأكمل للعمارة طوال العصور المتعاقبة التي مرت بالبلاد .

المصادر و المراجع:

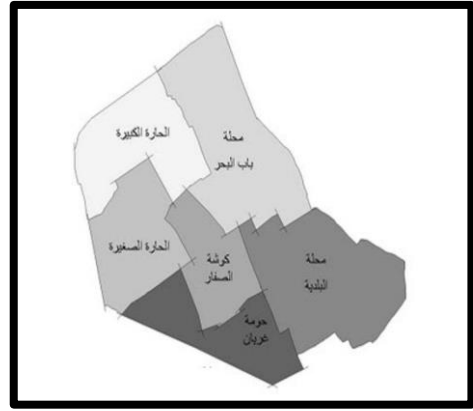
- (1)- محمد الحراري عبدالسلام : ليبيا عبر كتابات الرحالة المغاربة، وحدة الكتاب، طرابلس، ص18 .
- (2)- خليفة التليسي: حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1974، ص26 .
- (3)- خليفة التليسي: مرجع سابق، ص18.
- (4)- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: كتاب البلدان، ج7، تحقيق دي غويه، المكتبة الجغرافية، لندن، 1983م، ص 346 .
- (5)- محمد يوسف نجم-احسان عباس : ليبيا في كتابات الجغرافيا و الرحلات، دار ليبيا للنشر و التوزيع و الإعلان، بنغازي، 1965م، ص 19 .
- (6)- ابن حوقل، محمد ابولقاسم: صورة الأرض، مطبعة بريل، لندن، 1938م، ص576 .
- (7)- المقدسي، محمد بن احمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي غويه، ط2، لندن، 1906م، ص224
- (8)- محمد يوسف نجم-احسان عباس: مرجع سابق، ص 31 .
- (9)- الشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق هنري بيرس، الجزائر، 1957م، ص 89-90 .
- (10)- مؤلف مجهول: الإستبصار في عجائب الأمصار، نشر و تعليق سعد زغلول عبدالحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، الإسكندرية، 1958م، ص 110 .
- (11)- محمد الحراري عبدالسلام : مرجع سابق، ص 99 .
- (12)- محمد الحراري عبدالسلام : مرجع سابق، ص 116-117-118 .
- (13)- خليفة التليسي: مرجع سابق، ص 26-27.

- (14) - التيجاني، أبو العباس احمد : رحلة التيجاني، قدّم لها حسن حسني عبدالوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس-ليبيا، 1981م، ص ص 237-253 .
- (15) - ابن غلبون، ابي عبدالله: التذكار فيمن ملك طرابلس و ما كان بها من اخبار، ط2، تحقيق الطاهر الزاوي، مكتبة النور، طرابلس، 1967م، ص117.
- (16) - إدوارد ريا : المغرب العربي في القرن 19م، ترجمة مصطفى جودة، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ص38 .
- (17) - مابل تود: أسرار طرابلس، ط1، دار الفرجاني، طرابلس، 1968م، ص41 .
- (18) - فؤاد الكعبازي: نظرة في تاريخ و تكوين المدينة القديمة، صحيفة إطرابلس القديمة، العدد16، السنة الأولى، مشروع ادارة و تنظيم المدينة القديمة، طرابلس 1987م، ص41 .
- (19) - علي الميلودي عمورة: طرابلس المدينة العربية و معمارها الإسلامي، مكتبة الفرجاني، طرابلس، 1993م، ص 191-192 .
- (20) - محمد الصديق ابو حامد: معالم مدينة طرابلس ايام الاحتلال الأسباني، صحيفة إطرابلس القديمة، العدد16، السنة الأولى، مشروع ادارة و تنظيم المدينة القديمة، طرابلس، 1987م، ص6 .
- (21) - هـ.س كاوبر: مرتفعات آلهات الجمال، ترجمة أنيس زكي، دار الفرجاني، طرابلس، 1995م، ص2 .
- (22) - ابن غلبون، ابي عبدالله: مصدر سابق، ص19 .
- (23) - نجم الدين غالب الكيب: مدينة طرابلس عبر التاريخ، ط2، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1978م، ص ص 70-73 .
- (24) - شارل فيرو: الحوليات الليبية، ترجمة محمد الوافي، ط3، جامعة قاريونس، بنغازي، 1994م، صص93-94 .
- (25) - نفس المرجع السابق، ص 93-94 .
- (26) - التيجاني، أبو العباس احمد : مصدر سابق ، ص237 .
- (27) - ريتشارد توللي: عشر سنوات في بلاط طرابلس، ترجمة عمر الديراوي ابو حجلة، دار المحدودة، لندن، 1984م، ص6 .
- (28) - علي الميلودي عمورة: مرجع سابق، ص 212 .

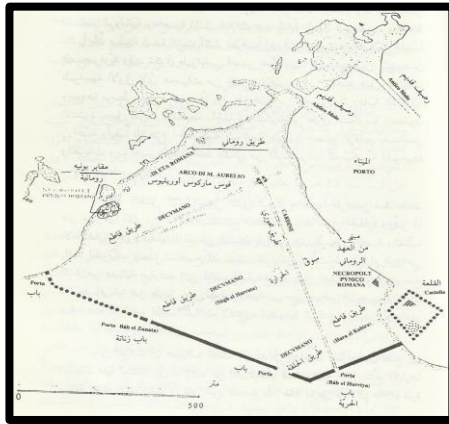
الأشكال



شكل رقم 2
التقسيم الإداري الحالي للمدينة القديمة



شكل رقم 1
المخطط العام للمدينة القديمة



شكل رقم 4
القلعة العائمة في العهد الإسباني



شكل رقم 3
تطور المخطط العام ابتداءً من المخطط الروماني